الإنجليز ... قوى السياسة وصفات المجتمع

الفصل الخامس والعشرون (33 صفحة)

من كتاب

سياسات الأمم ولعبة الأقدار

(2010 – رقم:3)

عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

المراجع في هذا الباب موجودة في صفحة المراجع في الكتاب الأصل

جميع الحقوق محفوظة

الفصل الخامس والعشرون

الإنجليز... قوى السياسة وصفات المجتمع

إن إنجلترا ومنذ أوائل القرن الثامن عشر وحتى الآن هي أشد الدول مهارة في العمل السياسي والتخطيط الاستراتيجي، ومن المفيد جدا دراسة تاريخها ومجتمعها ومراقبة تصرفاتها.

والقوى الرئيسية في إنجلترا الآن ثلاثة: المؤسسة الملكية، والأجهزة الإدارية العليا، وحزب المحافظين.

❖ المؤسسة الملكية

قامت الجمهورية الإنجليزية عام ١٦٤٩م بقيادة أوليفر كروميل وبسيطرة البرلمان الكاملة على أمور الدولة. وبعد وفاة كروميل قام البرلمان بإرجاع الملكية ولكن بقيود واضحة تتمثل بحق البرلمان في حكم الدولة. وترسخت منذ ذلك الوقت أعراف تحدد نفوذ وصلاحيات الأغنياء من الطبقة الأرستقراطية والوسطى (يمثلهم في ذلك الوقت البرلمان) وبين المؤسسة الملكية.

والمؤسسة الملكية الآن تتمثل بالعائلة الملكية والطبقة الأرستقراطية في إنجلترا. وهذه المؤسسة كانت تسمى في بداية القرن العشرين بالمؤسسة البريطانية (British Establishment).

نفوذ المؤسسة الملكية يكمن فيما يلي:

١. توجد حقوق ملكية (Monarch>s Prerogative Powers)في إدارة الدولة، وهذه الحقوق تتضمن الآتي:

* إقالة أو تعيين رئيس الوزراء. وتم استخدام هذا الحق آخر مرة عام ١٩٦٣ بقيام الملكة بتعيين "أليك دوجلاس" (Alec Douglas) لمنصب رئاسة الوزراء.

* حل أو عدم حل البرلمان.

* عدم التصديق على العرائض والقوانين التي يرفعها البرلمان إلى المؤسسة الملكية. ومع أن آخر مرة تم فيها استخدام هذا الحق كان عام ١٧٠٨م إلا أنه لا يوجد أية موانع قانونية من قيام المؤسسة الملكية باستخدام هذا الحق مجددا.

* الموافقة أو عدم الموافقة على العرائض والقوانين التي يناقشها البرلمان فيما يتعلق بحقوق المؤسسة الملكية. وقد تم استخدام هذا الحق آخر مرة عام ١٩٩٩م. وحكايتها أن مجموعة من أعضاء مجلس العموم تقدموا بعريضة رسمية إلى مجلس العموم تطالب بنقل صلاحيات إعلان الحرب على العراق من المؤسسة الملكية إلى البرلمان. وقد رفضت المؤسسة الملكية إعطاء موافقتها لهذه العريضة وبالتالي تم سحب هذه العريضة من أجندة البرلمان.

٢. يوجد تغلغل واضح لرجالات الطبقة الأرستقراطية في المواقع الحساسة في الدولة مثل الجيش والخارجية والاستخبارات والخزانة.

٣. الجيش في إنجلترا تحت القيادة الحقيقية من العائلة المالكة. وأما رئيس الوزراء ووزير الدفاع والحكومة فهم يقومون بإدارة موارد الجيش. وتنظيمات الجيش وترقياته تتم بشكل منفصل تماما عن إدارة البرلمان أو مجلس الوزراء.

٤. القوات الإنجليزية الخاصة (SAS) تحت القيادة المباشرة من العائلة المالكة ومنفصلة تماما عن الجيش وعن إدارة مجلس الوزراء. وهذا الموضوع يتطلب انتباها خاصا، فهناك قوات خاصة تابعة للمخابرات وقوات خاصة تابعة للشرطة وكلاهما يتم تدريبهما من قبل الـSAS ولكنهما ليسا من الـSAS، وذلك لوجود اهتمام واضح لفصل الـSAS عن الأجهزة التابعة لمجلس الوزراء.

وهنا نقطة أساسية يجب الانتباه لها عند بحث نفوذ المؤسسة الملكية وهو أنه لا يوجد دستور في إنجلترا. والدستور هو عريضة واضحة تقوم بتحديد الآليات

والقوانين التي تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والحقوق والواجبات لكل منهم. وهذا الأمر غير موجود في نظام الحكم في إنجلترا وإنما الموجود هو مجموعة من الأعراف.

وهذا معناه أن المؤسسة الملكية تستطيع قانونيا أن تقوم بقلب نظام الحكم في إنجلترا إذا استدعت الظروف ذلك. وقد تم التفكير بشكل جـــدي بقلب نظام الحكم في إنجلترا وإقامة حكومة عسكرية عام ١٩٧٤م. ففي برنامج وثائقي لـ BBC (The Plot against Harold Wilson-2006) ووثائق أخرى تم الكشف عن ريبة حقيقية من المؤسسة الملكية لهارولد ويلسون (رئيس الوزراء). وتم إنشاء فرقة خاصة من الجيش هدفها السيطرة على أجهزة الدولة إذا استدعت الظروف ذلك. وقد قام الجيش فجأة ودون إعلام مجلس الوزراء بالانتشار في مطار هيثرو بحجة التدريب على مواجهة العمليات الإرهابية. ولكن الرسالة كانت واضحة وهي أنه كما أن للجيش القدرة على الانتشار فجأة في مطار هيثرو فإن له القدرة كذلك على الانتشار فجأة في داخل مجلس الوزراء نفسه. وقد تم الكشف كذلك عن أن الدافع الرئيسي وراء هذه الجهود كانت الملكة الأم. ويبدو أن الضغوط المختلفة على ويلسون هي التي أقنعته أخيرا بالاستقالة من الحكومة.

❖ حزب المحافظين

كما تم ذكره من قبل، فإن البرلمان (مجلس العموم ومجلس اللوردات) قد سيطر تماما على مقاليد الحكم في إنجلترا عام ١٦٤٩م. وبعدها قام البرلمان بإرجاع الملكية ضمن شروط واضحة.

والبرلمان في ذلك الوقت كان تحت سيطرة الأغنياء من العائلات الأرستقراطية والطبقة المتوسطة. وكان يمثل الأغنياء حزبين هما حزب التوري وحزب الهويج. وفي أوائل القرن العشرين فإن حزب الهويج قد اندثر وقام حزب التوري بتجديد نفسه وتغيير اسمه إلى حزب المحافظين.

فحزب المحافظين يمثل المؤسسات الاقتصادية الضخمة والأغنياء من الطبقة الأرستقراطية والوسطى.

وبالطبع فإن حزب المحافظين ليس على رأس السلطة الآن في إنجلترا، فقد خسر الحزب الانتخابات عام ١٩٩٧ م. وهناك قرائن تدل على أن الأمر تم تدبيره بتعمد. وعلى غلبة الظن فإن رجالات الحكم في إنجلترا قد وجدوا أنه من الضروري الدخول في مجال اليورو (العملة الأوروبية الموحدة) ولكن لم يكن في قدرة حزب المحافظين تنفيذ هذا الأمر لأن النظرة الغالبة لأعضاء حزب المحافظين هي نظرة لا-أوروبية. فكان لا بد للحزب أن يخرج من السلطة وأن يخسر الانتخابات لصالح حزب العمال. وقد كان الدخول في مجال اليورو أمرا واضحا في أجندة حكومة العمال. ولكن هذا الأمر تم تأجيله بسبب الحرب في أفغانستان والعراق. وتم الآن إهمال هذا الموضوع تماما بعد أن غاصت حكومة العمال في مستنقع هذه الحروب.

وأهم القرائن الدالة على التحليل السابق هو أن القيادات التي تم اختيارها لحزب المحافظين يفتقدون وبشكل واضح للكريزما اللازمة للفوز في الانتخابات. وهذه الملاحظة تنطبق على جون ميجور(John Major) ، و جورج سميث (George Smith)، ومايكل هووارد(Michael Howard)، وديفيد كاميرون-(David Cam eron). أما وليام هيج (William Hague) فعنده الكيريزما للقيادة ولكنه قد أظهر نفسه (متعمدا أو سذاجة) على أنه جوكر ومهرج سياسي وهي صفة لم تكن مساعدة له للفوز في الانتخابات.

ومستقبل الحكومة القادمة ما زال يعتمد (ضمن وجهة نظر المؤلف) على موضوع اليورو. فإذا كان اليورو على رأس الأجندة لرجالات الحكم في إنجلترا فهذا يتطلب بقاء حزب العمال. وهذا أيضا يتطلب إعفاء جوردن براون من رئاسة الوزراء لعدم وجود كريزما قيادية كافية له للفوز بالانتخابات. وأما إذا لم يعد اليورو على رأس الأجندة فإن الغالب هو فوز المحافظين بقيادته الحالية. فديفيد كاميرون لا

يملك الكيريزما كـ توني بلير أو تاتشر لكنه أفضل بكثير من براون كما أن الناس قد بدأت تشعر بالإحباط من حزب العمال.

❖ الأجهزة الإدارية العليا

بدأت الأجهزة الإدارية بالنمو باضطراد منذ أواخر القرن الثامن عشر. وهذه الأجهزة تتكون من موظفين دائمين ليس لهم علاقة مباشرة مع البرلمان أو الأحزاب السياسية. وأي جهاز إداري يصل إلى الدرجة الكافية من النمو فإنه يبدأ التصرف بديناميكية شبه مستقلة.

وهنـاك ثلاث أجهزة إدارية في إنجلترا هي الأساسـية وهـي التي تحوز القوة الأكبر: وزارة الخارجية والاستخبارات ووزارة المالية (الخزانة).

وضمن مثلث القوة في إنجلترا (أي المؤسسة الملكية والأجهزة الإدارية وحزب المحافظين) فإن الضلع الأقوى في هذا المثلث هو الأجهزة الإدارية إن اتفقوا. وقوة الأجهزة الإدارية تكمن في أنهم الأعلم بالمراكز المؤثرة وهم الأعلم في ضرب الأوتار الحساسة في الدولة.

وضمن تخمين المؤلف فقد كان هناك صراع بين الأجهزة الإدارية وبين العائلة المالكة في الثمانينات من القرن العشرين. والأسباب غير واضحة عند المؤلف ولكن ربما تكون علاقة إنجلترا مع أوروبا هي أحد هذه الأسباب، والقرائن على هذا الصراع هو ظهور سلسلة متكررة من الفضائح في الإعلام الإنجليزي تمس العائلة المالكة، كما أن هناك تقارير صحفية في ذلك الوقت توحي بأن العلاقة بين مارجريت تاتشر والملكة لم تكن دافئة.

الآن....إذا لاحظت فإن حدود القوى الثلاثة غير واضحة وإنما ستجد أن هذه القوى في إنجلترا تتشابك مع بعضها. فالطبقة الأرستقراطية تربط بين المؤسسة الملكية وحزب المحافظين، كما أنها تربط بين المؤسسة الملكية والأجهزة الإدارية. كما يوجد نفوذ للأجهزة الإدارية في حزب المحافظين والعكس صحيح.

وفي كثير من الأحيان فإن مثل هذا التشابك في أنظمة الحكم قد يؤدي إلى ازدواجية المصالح وغموض الرؤية والارتباك في مراكز صنع القرار. وكذلك فإنه قد يؤدي إلى صراع عنيف وشرس. ولكن هناك صفات ترعرعت في المجتمع الإنجليزي ساعدت على تحويل نقاط الضعف في تشابكات القوى إلى نقاط قوة حقيقية. وهذه الصفات هي: برودة الأعصاب، وطول البال، وحسن الاستماع، والجدية المسيحية (Christian work ethics)، وكراهية العناد والتطرف في الآراء.

ولا يوجد وضوح عند المؤلف عن الرجل الذي خلق هذه الصفات عند الإنجليز ولا عن الزمن الذي بدأت فيه هذه الصفات بالظهور. ولكن تخمين المؤلف أن هذه الصفات قد ترسخت أكثر في المجتمع الإنجليزي بجهود ويليام بت (William Pitt) رئيس الوزراء في أواخر القرن الثامن عشر.

وفي عهد ويليام كانت الثورة الفرنسية والثورة الأمريكية. وكانت هذه الثورات زامور الخطر الذي هدد وجود النظام الأرستقراطي في البلاد. فقد كانت الثورة الفرنسية والأمريكية هي ثورة الطبقة العامة على الأرستقراطيين، وهي ثورات لم تأت من عدم وإنما سبقتها أفكار ودعوات انتشرت في أوروبا قبل الثورة بعشرات السنين. وأدرك ويليام بعد الثورة الفرنسية أن هذه الأفكار ليست موضة مؤقتة، وإنما هي مرحلة جديدة في تاريخ الحضارة البشرية. وأدرك أن عليه البحث عن أدوات خلاقة للتعامل مع هذه الأفكار بما يضمن (قدر الإمكان) بقاء الوضع القائم.

وقد أدت جهود ويليام إلى ظهور فلسفات وآليات وصفات تشكل بها المجتمع الإنجليزي وأجهزته الإدارية. والغالب على ظن المؤلف أن الصفات السابق ذكرها كانت إحدى النتائج لتلك الجهود.

فجميع الصفات السابقة (برودة الأعصاب وطول البال وحسن الاستماع والجدية المسيحية وكراهية التطرف في الآراء) تصب كلها في مصلحة عدم قلب النظام بالقوة وعدم توجيه المجتمع نحو الصدام الدموي والفوضى. وهي كذلك

تقوم بتشجيع ثقافة التسويات، وبالطبع فإنه في أي تسوية بين القوي والضعيف فإن تنازلات الضعيف ستكون أكبر من تنازلات القوي.

انتبه هنا... إن برودة الأعصاب وحسن الاستماع والجدية وطول البال هي حق وهي صفات أساسية لأي مجتمع وبغيرها فإن المجتمع لن يتمكن من القيام بنهضة حقيقية، ولكن هذه الصفات قد تم نشرها في المجتمع الإنجليزي كـ "حق أريد به باطل".

ولتوضيح المقصود بالجدية المسيحية فإن هناك فكرة انتشرت في المجتمع الإنجليزي (وتخمين المؤلف أنها أحد جهود ويليام بت) أنه لكي يكون الرجل مسيحيا مخلصا فإنه يجب أن يكون مطيعا ومثابرا. فالفكرة كانت تقوم على ربط المسيحية بالطاعة والمثابرة.

انتبه....الصفات السابقة تجدها واضحة في الطبقة الوسطى والطبقة الأرستقراطية ولكنك قد لا تجدها بنفس الوضوح في طبقة العمال.

وترسيخ الصفات السابقة في المجتمع الإنجليزي خلقت منه مجتمعا فريدا من نوعه في العالم.

ومن الممكن ملاحظة صفات أخرى نتجت عن هذه الصفات:

❖ البعد عن تمجيد الذات

الإنجليز لا يحبون تمجيد ونفخ الذات. والمقصود بتمجيد الذات هو كما يلي: أنا فعلت كذا وقمت بكذا، وبفضلي صار كذا وبذكائي تمكنت من كذا وكذا.

وهذا لا يتعلق بتصرفات الأفراد وإنما يتعلق كذلك بتصرفات الدولة والإعلام. فليس من عادة الإعلام الإنجليزي أن يقوموا بتمجيد إنجلترا وتمجيد تاريخها.

انتبه.....تمجيد الذات غريزة طبيعية في البشر. ولكن هناك من يقوم بتمجيد ذاته وعشيرته ووطنه بشكل مباشر وصريح (كالأنظمة في الوطن العربي) وهناك من يقومون بتمجيد أنفسهم بشكل غير مباشر وغير صريح كالإنجليز.

وهذه الصفة ساعدت إنجلترا كثيرا في فنون الكر والفر. فإن أي مناورة تتطلب مراحل من الهجوم والانسحاب والكر والفر. ولكن الانسحاب يبقى صعبا ومؤلما للنفس المتكبرة والمتغطرسة. وعندما تبدأ الدولة (أي دولة) بتمجيد ذاتها وتمجيد رموزها وتمجيد تاريخها وبشكل مباشر وصريح فإنه على مدى جيلين فقط (٢٠ سنة) فإن الدولة وأفرادها وأجهزتها الإدارية سيبدأون التصرف (ودون وعي) بتكبر وغطرسة. وعندها فإن مهارة الدولة في فن المناورات تبدأ بالانهيار. وأفضل الأمثلة هو موقف إنجلترا وأمريكا من ليبيا. فعندما رضخت ليبيا للشروط الغربية فإن توني بلير قام من فوره بزيارة ليبيا وعقد الصفقات معها، ولم يستنكر الإنجليز هذا التصرف. وأما أمريكا فإنها لم تستطع أن تتصرف كإنجلترا وذلك لأن صفات التكبر والغطرسة يمنعانها من ذلك. وكذلك فعندما ظهر لأمريكا أنها وقعت في مستنقع حقيقي في العراق فإن بوش لم يكن بمقدوره الانسحاب وذلك لنفس الأسباب السابقة: التكبر والغطرسة. وهذه الأسباب هي ما تمنع أمريكا من الاعتراف بالأخطاء والاعتذار. وأما إنجلترا فإن تاريخها كله هو سلسلة من الاعتداءات والخروقات تتبعها سلسلة أخرى من تلميحات الاعتذارات وانتقادات الذات ثم تتبعها سلسلة أخرى من الاعتداءات وهكذا. ولقد أتقنت إنجلترا فن شراء الأفعال والمصالح بالألفاظ والكلام.

❖ تحديد المسئولية

الصفة الأخرى للإنجليز المقابلة لعدم تمجيد الذات هي تحديد المسئولية. وهناك من لا يستطيع التفريق بين هاتين الصفتين ولكن الفرق بينهما في غاية الوضوح. وتحديد المسئولية هو كما يلي:

- وجهة نظري في هذا الموضوع هو كذا.
- رأيي هنا هو كذا.
- القرار الذي اتخذته هنا هو كذا.

- The way I see it is this
- I assume that it is this
- My decision here is this

فالإنجليز لا يحبون التعميمات ويفضلون تحديد المسئولية في الرأي أو القرار. وهذه الصفة ساعدت وبشكل كبير على تخفيف حدة الجدال في المجتمع الإنجليزي. والسبب أن تحديد المسئولية يقوم بإبعاد شبهة فرض الرأي، وكأن الحال يقول: هذه وجهة نظري ولك أن تحتفظ بوجهة نظر أخرى.

لتوضيح هذه الفكرة انتبه للعبارات التالية:

- زيد: القرار الذي اتخذته هو كذا وكذا.
- جرير: القرار في هذا الموضوع هو كذا وكذا.
- جرير: القرار الصحيح يجب أن يكون كذا وكذا.
- زيد: وجهة نظري في هذا الموضوع هو كذا وكذا.
- جرير: وجهة النظر الصحيحة هي كذا وكذا.

هل لاحظت أن شبهة فرض الرأي عند جرير هي أعلى بكثير من شبهة فرض الرأي عند زيد؟؟

وهذه الصفة في تحديد المسئولية لها علاقة عكسية مع صفة أخرى وهي صفة الأستذة (من أستاذ).

والأستذة هي قيام طرف دون اتفاق أو رضى بتعليم الآخر. ولهذه الصفة حكاية:

إذا قمت بالانتباه إلى المجتمعات المطلة على البحر الأبيض المتوسط فستجد أن صفة الأستذة متغلغلة فيها. هذه الصفة تجدها في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا واليونان وتركيا وبلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي. وإذا انتبهت إلى الكثير من النقاشات

في هذه المجتمعات فستجد أن كل طرف في هذا النقاش يحاول تعليم الآخر. وأن كل واحد فيهم يتصرف وكأنه الأستاذ في الجلسة والآخرين هم تلامذة. وإذا انتبهت أكثر فستجد أن أكثر العبارات استعمالا في النقاش هي: خليني(دعني) أفهمك، خليني أشرحلك، خليني أحكيلك.

هذه الصفة جاءت إلى مجتمعات البحر الأبيض المتوسط من حكم الرومان.

وهناك صفة أخرى تجدها في بلاد الشام ومصر وهو أسلوب الإفحام المنطقي في النقاش. وتستطيع أن تقوم بتمييز هذا الأسلوب في العبارات التالية:

- خليني أسألك سؤالاً واحداً فقط....
- هل هذا صحيح أو خطأ.
- فقط جاوبني على السؤال. هل هذا صحيح أو خطأ.

والنقاش في هذا الأسلوب هو عبارة عن أسئلة في أسئلة وكل سؤال يهدف إلى إفحام الآخر.

وهذه الصفة جاءت إلى بلاد الشام من الثقافة اليونانية.

وإذا انتبهت إلى إنجلترا بشكل خاص و إلى الحزام الأوروبي الشمالي (إنجلترا واسكتلندا وهولندا وألمانيا والدانمارك وبلجيكا والسويد والنرويج.. إلخ) بشكل عام فستجد أن الأستذة وأسلوب الإفحام غير موجود عندهم.

انتبه....هناك فرق بين الأستذة وتقديم النصيحة. والأستذة في مجتمعات البحر المتوسط تتنكر بالنصيحة ولكن الأستذة وتقديم النصيحة هما أمران مختلفان تماما. فالأستذة هي قيام طرف بتعليم الطرف الآخر دون اتفاق أو رضى في حين أن تقديم النصيحة هو قيام طرف بلفت انتباه الطرف الآخر. والعبارات التي يتم استخدامها في الأستذة تختلف عن العبارات التي يتم استخدامها في تقديم النصيحة.

وكذلك النتيجة تختلف، ففي حالة الأستذة فإن "الأستاذ" سيشعر بالضيق وخيبة الأمل إن لم يقم "التلميذ" بأخذ "النصيحة". أما في حالة تقديم النصيحة فإن الطرف الذي يقدمها يعلم مسبقا أن الطرف الآخر له الحق في أخذ النصيحة أو إهمالها. وأفضل إشارة تستطيع أن تفرق فيها بين الأستذة وتقديم النصيحة هي الإلحاح والتكرار، فإن "الأستاذ" إذا وجد أن "التلميذ" رأسه يابس فإنه يقوم بالتكرار والتكرار. أما في النصيحة فإنه يتم تقديمها مرة واحدة دون تكرار أو إلحاح.

وهذا هو الفرق بين تقديم النصيحة في مجتمعات الحزام الأوروبي الشمالي وبين تقديم النصيحة (الأستذة) في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط.

وهناك صفة أخرى جديرة بالذكر قد أخذتها مجتمعات البحر الأبيض المتوسط من الرومان وهي صفة "البصبصة"، وهي قيام الرجال بالنظر إلى النساء في الأسواق والشوارع.

وهذه الصفة تراها بوضوح في فرنسا وإيطاليا واليونان ولكنك لا تراها بنفس الوضوح في الحزام الأوروبي الشمالي. وإذا أراد القارئ أن يختبر هذا الادعاء فإن أفضل الأمثلة هو سويسرا. وسويسرا تتكون من عدة ولايات ذات ثقافات ولغات مختلفة وتم توحيدها في نظام سياسي واحد عام ١٦٤٨. ويوجد في شمال سويسرا مدينة زيوريخ وهي ذات ثقافة ألمانية ويوجد في جنوب سويسرا مدينة لوكارنو وهي ذات ثقافة إيطالية. وليقم القارئ بزيارة زيوريخ ويقوم باستخدام المواصلات العامة من باصات وترامات وليقم بملاحظة الناس هناك. ثم ليقم القارئ بزيارة لوكارنو وليقم بنفس العمل هناك. ثم ليقم القارئ بالاستنتاج طبقا لملاحظاته.

وهذه الصفة ليست لها علاقة ببرودة الأعصاب أو حميتها، وليس لها علاقة بالغريزة أو الحاجات، وليس لها علاقة ببرودة المناخ أو دفئه، وليس لها علاقة بالأصول أو الديانات. وإنما هي عادات رومانية تناقلتها الأجيال في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط جيلا بعد جيل.

في المقابل لهذه الصفة فإنك من النادر أن تجد الشاب والفتاة يتبادلون العناق والقبلات الحميمة في روما إذ سيؤدي هذا إلى زفة وهيصة وزنبليطة "وحتبقى فضيحة". وأما في إنجلترا فليس من النادر أبدا أن ترى الشاب والفتاة في تبادل حميم وترى الحضور والجمهور لا يكترثون لما يحدث.

❖ اعتدالية المدح والذم

أحد الأمور الواضحة والتي يختلف فيها الإنجليز عن مجتمعات البحر الأبيض المتوسط هو في موضوع المدح والذم:

فالمدح والذم في مجتمعات البحر المتوسط يكون للشخصية:

- أنت عبقري.
- أنت ذكي.
- إنت مفيش زيك.

والمذمات تكون عكسها.

وأما عند الإنجليز فإن المدح والمذمة تكون للأشياء أو الأفعال وليس الشخصية:

- هذا رائع.
- هذا تصرف ذكي.
- هذه سيارة جميلة.
- هذا تصرف غير مقبول.

بالطبع فإن المديح للأشياء والأفعال ساعد على إبعاد المجاملة الإنجليزية عن التملق، كما ساعدت طريقة الذم عند الإنجليز على إبعاد خلافات الرأي (قدر

الإمكان) عن النزاعات الشخصية فعندما تقول للرجل إن تصرفه خاطئ فإن هذه المذمة أخف بكثير من أن تقول له إنه أحمق. فالمذمة الأولى كانت للتصرف والثاني كانت للشخصية.

❖ الأدب ومراعاة الحضور

جميع الثقافات والديانات تدعو إلى الأدب واحترام الغير في المجتمع. ولكن إذا كان المجتمع يتصف بسرعة الاستفزاز والعصبية فإن حبل الأدب في المجتمع سيكون قصيرا. أما إذا كان المجتمع يتصف بطول البال وهدوء الأعصاب فإن الأدب في المجتمع سيكون واضحا. وهذا ما حدث في إنجلترا. فقد تشابكت صفات الهدوء وبرودة الأعصاب وطول البال مع الدعوات إلى الأدب لتخلق مجموعة من الصفات والتي قام الإنجليز بتسميتها أخلاق الجنتلمان(Gentleman) . وهناك صفة أخرى موازية لما سبق وهي مراعاة مشاعر الحضور، وإذا انتبهت إلى الإنجليز في تصرفاتهم الآنية من تجوال ومسير ودخول وخروج فتجد فيهم الاهتمام الواضح بمراعاة مشاعر الحاضرين.

❖ الرسمية

الرسمية هي أحد المصطلحات الواضحة في الوجدان ولكنها صعبة التعريف. وكتعريف غير جامع وغير مانع فإن الرسمية هي عبارة عن حدود العلاقات التي تحدث بين الناس في دائرة المجتمع والعمل. ونقيض الرسمية هو العلاقات الشخصية. فالعلاقة بين الأب والابن والأخ والأخت والزوج والزوجة هي علاقات شخصية في حين أن العلاقة بين الموظف والمدير هي علاقة رسمية مهما كانت درجة الود بينهما.

وحدود الرسمية في مجتمع البحر الأبيض المتوسط غامضة ومطاطة. وأفضل دلالة على ذلك هو عدم وجود فصل واضح بين مجال العمل ومجال الصداقة أو بين مجال العمل والمجال الشخصي. أما الرسمية في إنجلترا فهي واضحة وهناك فصل ظاهر بين مجال العمل والمجال الشخصي. وهي كلمة مشهورة عندهم: Business is Business.

وقد توحي عبارات "برودة الأعصاب" و"علاقات رسمية" للبعض أن الإنجليز متجهمو الوجه وذو كشرة وعدم اهتمام بالآخرين. وهذا الإيحاء غير صحيح أبدا. فربما تجد الناس في لندن متجهمي الوجه وذلك لسرعة الحياة هناك ولكن إذا خرجت إلى المدن المحيطة والريف فإن الواقع يختلف. فالإنجليز (بشكل عام) ذوو بشاشة ووجوههم يغلب عليها الابتسامة وعندهم حس النكتة والمرح.

وهذه الخلطة نجح الإنجليز أن يخلقوها في أنفسهم. فالعلاقات الاجتماعية في العمل هي علاقات رسمية، ولكنهم ذوو مهارات عالية في مداراة المشاعر كما يظهر على تصرفاتهم المرح.

وهناك ميزة في الرسمية في إنجلترا وفي الحزام الأوروبي الشمالي (إنجلترا والنرويج واسكتلندا والسويد وبلجيكا والدانمارك وهولندا وألمانيا) وهو عدم الحاجة إلى الصياح لتنفيذ الأعمال وعدم وجود الإلحاح في العلاقات الاجتماعية.

وهنا نقطة فرعية جديرة بالبحث:

إن من أشد الثقافات ضررا في الشرق الأوسط هي ثقافة "العين الحمراء" وثقافة "لسه بيتحَمّل" (ما زال يتحمل).

ومقتضى ثقافة "العين الحمراء" هو أن المدير إذا لم يكن عصبيا فإن الموظفين أو العمال سيأخذونها فرصة للإهمال.

والسبب في هذه الثقافة أنه لم يكن هناك فلسفات وآليات واضحة في مجتمعات الشرق الأوسط تفرض الهيبة والاحترام لهيكلية الإدارة، وإنما الهيبة والاحترام هي وظيفة كل مدير. وبالطبع فإن الأوضاع تحسنت في الشرق الأوسط ولكن ما زالت ثقافة العين الحمراء موجودة.

دعونا نتحدث قليلا عن المقصود بالفلسفات والآليات في المجتمع:

إذا قام موظف بسوء التصرف في إنجلترا وقام المدير بمحاسبته فإن المجتمع والموظفين والإدارة تقف مع المدير. والسبب هو وجود فلسفات في المجتمع تفرض

هيبة واحترام الإدارة بالإضافة إلى وجود آليات أخرى في المجتمع تحاسب الإدارة إن هي تصرفت بسوء مع الموظفين.

أما إذا قام الموظف بسوء التصرف في الشرق الأوسط فإن الذي يحدث هو وقوف الكثيرين مع الموظف ومحاولة التوسط له وإيجاد الأعذار والتبريرات. فالفلسفات في مجتمع الشرق الأوسط ليست مساعدة لفرض الاحترام لهيكلية الإدارة.

وهنا نأتي إلى موضوع الإدارة في الحزام الأوروبي الشمالي، فإن هيبة الإدارة لا تأتي بالضرورة من مهارات الإدارة بقدر ما تأتي من فلسفات المجتمع.

وأما ثقافة "لسه بيتحمل" فهي أشد ضررا من الثقافة السابقة وهي كما يلي:

لنفترض أن جريرا أراد شيئا من زيد ولكن زيدا قام بالاعتذار. الذي يحدث في كثير من الأحيان هو أن يقوم جرير بالإلحاح على زيد. وما دام زيدا لم يصل إلى درجة الغضب فإن جريرًا سيبقى يظن أنه ما زالت لديه الفرصة وأن زيد "لسه بيتحمل ضغط". ويستمر جرير في الإلحاح حتى يظهر الغضب على وجه زيد وعندها يعرف جرير أنه قد وصل إلى الحد ويسكت.

ثقافة "لسه بيتحمل" قريبة جدا من ثقافة "العين الحمراء" وهي أن على الرجل أن يُظهر الغضب والنرفزة كي يشعر الآخرون أنهم قد وصلوا إلى الحد ويتراجعوا.

وهناك مثال آخر لثقافة "لسه بيتحمل": لنفترض أن جريرا قام بانتقاد زيد، وأن زيدا قد أخذ هذا الانتقاد بروح رياضية. الذي سيحدث في كثير من الأحيان هو أن جريرًا سيرى أن زيدا "لسه بيتحمل" ويقوم بانتقاد زيد وبشكل أكبر ومتكرر وبألفاظ مختلفة. ويستمر الانتقاد حتى تظهر النرفزة على زيد وعندها يُدرك جرير أنه قد وصل إلى الحد ويتوقف.

وضمن وجهة نظر المؤلف فإن ثقافة "العين الحمراء" وثقافة "لسه بيتحمل" هي أكثر الثقافات ضررا في الشرق الأوسط وأشدها توتيرا للأعصاب.

❖ لغة الوجه والجسم (Body Language)

مهارة الإنجليز في تعبيرات الوجه والجسم والمهارات الصوتية مرتفعة جدا. ولا يوجد عند المؤلف الإدراك الكافي لتفسير الكيفية التي استطاع بها الإنجليز الإمساك بهذه المهارة، ولكن هذه المهارة واضحة تماما عند الكبار والصغار، وعندما يقوم الإنجليز (أطفالا أو كبارا) بسرد القصة فإنك ترى الوجوه ونغمات الصوت تكاد تنطق مع القصة.

والميزة في هذه المهارة أنها تساعد على سهولة الاتصال والمواصلة بين الآخرين، فالكلمات تبقى محدودة في نقل المشاعر من شخص إلى آخر في حين أن لغة الوجه والجسم ونغمات الصوت أكثر فعالية في نقل هذه المشاعر.

وهنا توجد نقطة فرعية:

ضمن ملاحظات المؤلف فإن الأطفال في إنجلترا لهم بلاغة أكبر ومهارة أكثر في التعبير من الأطفال في الوطن العربي. بالطبع فإن هذا لا يمثل مشكلة جوهرية حيث إن الأطفال العرب مع الزمن سيتمكنون من الإمساك بمهارات البلاغة والتعبير ولكن من المناسب بحث أسباب هذه الظاهرة:

في إنجلترا فإن لغة المحادثة هي نفسها لغة الكتابة. وبالطبع هناك لهجات في إنجلترا ولكن تختلف هذه اللهجات عن بعضها في طريقة نطق الأحرف والعبارات، ولكن القواعد اللغوية والكتابة في جميع هذه اللهجات هي نفسها قواعد اللغة الإنجليزية.

وهذا معناه أن الأطفال عندما يطالعون القصص أو عندما يقوم الآباء بقراءة القصص للأطفال فإن التعابير الموجودة في القصة هي نفسها تعابير المحادثة مما يكون سهلا على الطفل حفظها واستعمالها في الحديث.

وأما في الوطن العربي فإن لغة المحادثة تختلف عن لغة الكتابة. فلغة المحادثة هي اللغة العامية في كل بلد وأما لغة الكتابة فهي العربية الفصحى. واللغة العامية

ليست لهجة وإنما هي في الواقع لغة منبثقة عن الفصحى ولكنها ذات تراكيب وقواعد مختلفة. وبالطبع فإن الميزة في الكتابة بالفصحى هي ضمان وجود لغة مشتركة بين الناس في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، ولكن أحد العواقب هو بطء ظهور البلاغة عند الأطفال، إذ إن التعبيرات اللغوية التي يطالعها الأطفال أو يسمعونها من قصص مكتوبة هي تعابير مختلفة عن تعبيرات المحادثة العامية.

❖ الدردشة

الدردشة (الأحاديث الودية) في إنجلترا تختلف عن الدردشة في مجتمع بلاد الشام. وإذا انتبهت إلى الدردشة في بلاد الشام فستلاحظ أن النقاش والجدال والأستذة تأخذ حيزا ضخما من حجم الدردشة كما أن المزاح في بلاد الشام يتم وبشكل كبير بصيغة السخرية والشتيمة.

والوضع مختلف عند الإنجليز فهم لا يحبون الجدال في الأمور التي لا يجدون فيها المصلحة ولهذا فأغلب الدردشة عندهم هى مجاملات وقصص وأخبار وأحداث شخصية. فالدردشة عند الإنجليز هي وسيلة لاراحة الأعصاب.

وهناك أمر واضح في بلاد الشام وغير واضح في المجتمع الإنجليزي وهو ثقافة "الممسكة". فإذا حدثت لأحد الناس أمور غريبة، كأن وقع في بركة الماء دون قصد، فإن هذه القصة ستصبح ممسكة على هذا الشخص وسيقوم الناس بترديدها والتذكير بها ولمدة طويلة. أما في إنجلترا فإن الناس ستضحك ذلك اليوم على هذه القصة وفي اليوم التالي تنتهي.

❖ المداراة

الإنجليز لا يحبون الجدال في الأمور التي لا يجدون فيها منفعة أو هدفاً، ولهذا فإن كثيراً من الإنجليز من يلتزم بمهارات المداراة وهي إظهار الاهتمام والاستماع إلى الموضوع والتعليق عليه بعبارات وألفاظ لا تدل على الموافقة وإنما تدل على الاستماع.

وبالطبع فإن مهارات تعبيرات الوجه والجسم ونغمات الصوت (Body Language) تلعب دورا هامًّا في هذه المداراة.

وإذا انتبهت إلى العبارات التي يستخدمها الإنجليز في هذه المداراة فستجدها أشبه لما يلي:

- هذا مثير للاهتمام – This is Interesting
- لم أنتبه لهذا الأمر من قبل – I did not realise that before
- لم أفكر بهذه الطريقة من قبل – I did not think about it this way
- إلخ

وإذا انتبهت فإن جميع هذه العبارات ليس فيها أية إشارة بالموافقة على الموضوع المطروح وإنما هو إشارات اهتمام واستماع.

❖ المواساة وامتصاص الغضب (مداراة المشاعر)

هناك فرق شاسع بين هدوء (برودة) الأعصاب وبين برودة المشاعر. وإذا كان القارئ يتذكر برنامج يسري فودة في قناة الجزيرة عن موضوع الطائرة المصرية التي سقطت في المحيط الأطلنطي بعد إقلاعها من أمريكا، فإن فيه لقطة في مطار القاهرة وكان أحد الموجودين في انفعال شديد وكان الحوار في هذه اللقطة كما يلي (بمعنى واعتمادا على الذاكرة):

- الأول وبانفعال شديد: دا أخويا [هذا أخي]
- الثاني وببرودة مشاعر جافة: هدي نفسك شوية.
- الأول: بأولك أخويا [أقول لك هذا أخي].
- الثاني وبنفس الجفاف وبرودة المشاعر: هدي نفسك شوية.
- وعندها انخرط الأول في البكاء.

وهذه اللقطة هي مثال لبرودة المشاعر وجفافها وحماقة التصرف من الرجل الثاني. فبرودة المشاعر هي عدم التفاعل مع المشهد الحاضر بالمشاعر المناسبة. وأما برودة الأعصاب فهي الإحاطة بالمشاعر ومنعها من التأثير على العقل ومنعها من التأثير على القرارات. والفرق بين برودة المشاعر وبرودة الأعصاب كبير.

ومهارات الإنجليز مرتفعة في القدرة على المواساة والقدرة على امتصاص الغضب والتوتر. وهذا بسبب هدوء الأعصاب ومهارات المداراة ومهارات الاستماع ومهارات تعبيرات الجسم. وإذا انتبهت إلى الأخبار ونظرت للكيفية التي يقوم فيها المدراء والمسئولون بامتصاص التوتر والغضب فستجد أنها مهارات مداراة. وهذه المداراة لا تعني الموافقة على أسباب التوتر والغضب وإنما هي إشارات اهتمام واستماع.

وإذا انتبهت إلى العبارات التي يتم استخدامها في هذه المداراة فستجدها شبيهة لما يلي:

- أنا أعتذر للأضرار التي نتجت عن هذا الأمر

- I am very sorry for the things that have been caused by this

- Oh Dear.

- This is awful

- إلخ.

وإذا انتبهت إلى هذه العبارات فلا يوجد أي اعتراف بالمسئولية أو موافقة على الموضوع وإنما هي إشارات على الاهتمام والانتباه والتفهم والاستماع وتلميحات الاعتذار. وفي معظم الأحيان فإن هذه الإشارات كافية لامتصاص الغضب والتوتر عند الناس. وهذه المهارة قد أتقنها الإنجليز.

وهناك عبارة أخرى يستخدمها الساسة الإنجليز كثيرا:

فعندما تظهر الأخطاء فإن الذي يحدث هو عمليات تحقيق وتلميحات الاعتذار وانتقادات للذات وينتهي الأمر بالعبارة التالية: لقد تعلمنا الدروس Lessons have been learnt.

ولقد أثار هذا الأمر حفيظة المؤلف: ففي برنامج تلفزيوني قام بيتر هين (Peter Hain) أحد وزراء إنجلترا السابقين بالاعتراف بوجود أخطاء في موضوع أسلحة الدمار الشامل في العراق ولكنه دافع عن نيات إنجلترا في هذه الحرب ثم اختتم مقاله بالقول إن: Lessons Have been learnt. وبالنسبة لوجهة نظر المؤلف فإن هذه العبارة في هذا الموقف هي وقاحة حقيقية، فإن إنجلترا مسئولة عن احتلال العراق وتدمير بنيته الاقتصادية ومقتل مئات الألوف من الشعب العراقي. وإذا كان بيتر هين يرى أنه يحق لإنجلترا أن تتعلم بعض الدروس من دماء العراقيين فإن السؤال له إن كان يحق للعراق بعد أن يتعافى أن يتعلم دروسا مماثلة من الإنجليز؟

ومن المفيد الانتباه لمجال آخر لمهارة المداراة:

فمهارة المداراة المتأصلة في المجتمع هي التي ساعدت ضباط المخابرات الإنجليز فى سرعة التأقلم مع عادات المستعمرات. فقد كان لكلوب باشا (ضابط المخابرات في الأردن) المهارة الحقيقية في التأقلم مع عادات البدو في اللباس والأكل والمحادثة والتصرف. وكان يقوم بهذه العادات وبشكل طبيعي بخلاف ضباط المخابرات الفرنسية (وغيرهم) فإن مداراتهم كان يظهر عليها التمثيل. وهذه المهارة لم تكن خاصة بكلوب باشا فقط وإنما ظهرت هذه المهارات عند الكثير من ضباط المخابرات الإنجليز في الأردن وفلسطين وعدن والهند وباكستان وإيران وكردستان. وهذا دلالة على أن المخابرات الإنجليزية كانت تبحث عن مهارات شخصية واضحة ومحددة في تجنيدها لرجالاتها.

❖ الذكاء صفة وليست هوية

تستطيع أن تجد في مجتمع الشرق الأوسط فلانا يقول إن غيره أطول منه أو أغنى منه أو أسرع منه. ولكنك من النادر أن تجد أحدا يقول إن فلانا أذكى منه.

فالذكاء في الشرق الأوسط هو جزء من الهوية والكل هناك يظن أنه أذكى الناس لولا أن الظروف لم تساعده.

والأمر مختلف في إنجلترا. فالذكاء صفة وليس جزءا من الهوية. ولهذا فمن الطبيعي أن تجد من يقول إن فلانا أذكى منه. فالذكاء في إنجلترا هو صفة كالطول والعرض والوزن. وكلها صفات ليست لها علاقة بالهوية.

على أية حال فإن الذكاء صفة مجازية وليس حقيقية. فصفة الذكاء ليست كصفة الطول؛ حيث إن الطول والعرض والوزن هي صفات حقيقية. وأما الذكاء فهو صفة مجازية تعبر عن مجموعة من المهارات. والمهارات تزيد وتنقص حسب الظروف والمزاج والأيام.

❖ المناداة بالأسماء الأولى

الإنجليز ينادون بعضهم بالأسماء الأولى. فالموظف ينادي ويتحدث مع المدير باسمه الأول دون ألقاب وكذلك طلاب الجامعات يتحدثون مع أساتذتهم بأسمائهم الأولى. وهذا الأمر جديد في المجتمع الإنجليزي فقبل الستينيات من القرن العشرين كان الإنجليز يتحدثون مع بعضهم بالألقاب. ولكن بتأثير من الثقافة الأمريكية ورغبة في تخفيف التوتر بين طبقات المجتمع فإن الإنجليز بدأوا بالتخفيف من ثقافة الألقاب.

بالطبع فإن كثيرا من المجتمعات يعتمد على ثقافة الألقاب لفرض الهيبة. ولكن هذا لم يكن ضروريا في المجتمع الإنجليزي؛ فإن فلسفات المجتمع ورسمية العلاقات قد فرضت على الجميع احترام هيكلية الإدارة. فهذه الرسمية هي التي تفرض على الموظف احترام المدير وتفرض على الطالب احترام الأستاذ. ولهذا السبب فإن إلغاء ثقافة الألقاب لم يؤثر على الهيبة والاحترام وحدود الأدب في المجتمع الإنجليزي.

❖ القـــراءة

الإنجليز شعب قارئ. ومفهوم القراءة هنا بحاجة إلى توضيح: فالقراءة قد تكون وسيلة لأخذ المعلومات أو قد تكون القراءة نفسها هواية. والقراءة عند الكثير من الإنجليز هواية، وتجد الكثير من الإنجليز يمارس هذه الهواية في الحدائق والباصات وعربات القطار.

ولكن انتبه...هواية القراءة للإنجليز ليست للكتب العلمية أو الأكاديمية وإنما الهواية هنا لقراءة الروايات. ومع أن الكثير من الروايات خيالية إلا أنها مفيدة جدا في نشر البلاغة والمهارات اللغوية. وكذلك فإن الروايات الإنجليزية والأمريكية لها دافع عالٍ في توسيع المدارك.

وهذه النقطة الأخيرة جديرة بالملاحظة:

هناك فلسفة حديثة (من بداية السبعينيات من القرن العشرين على تخمين المؤلف) في إنجلترا وأمريكا في موضوع كتابة الروايات الخيالية أو الواقعية أنها يجب أن تكون مبنية على هيكلية فلسفية أو علمية أو تاريخية. فالرواية الخيالية إن كانت فقط سردا للحوادث فهي رواية ضحلة ضمن نظرة النقاد لها. ولهذا السبب فإن كتابة الرواية في إنجلترا وأمريكا لا يمكن أن تتم في "شربة فنجان قهوة" وإنما هي بحاجة إلى أبحاث عميقة ليتم تحديد هيكلية الرواية. وفي كثير من الأحيان فإن مؤلف الرواية يعتمد على خبراته الأكاديمية أو الوظيفية في تحديد هذه الهيكلية. ولهذا السبب فإن الروايات الإنجليزية والأمريكية تكون مفيدة في التنبيه وتوسيع المدارك.

❖ نظرة الاحتراف

هناك دافع حقيقي للاحتراف في إنجلترا (وفي الحزام الأوروبى الشمالي). وأسباب هذا الدافع ليست واضحة تماما عند المؤلف. ولكن تخمين المؤلف أن الدافع جاء من ثنايا الثقافة في هذا الحزام.

ونظرة الاحتراف هي البذل المتواصل للجهد والوقت والمال (وبشكل غريزي) في سبيل إتقان المهارة. وهذا البذل المتواصل للجهد والوقت يؤثر (وبشكل غير مباشر) على السلوكيات ويصبح الإتقان نفسه هدفا غريزيا.

لنضع المثال التالي: لنفترض أنك شعرت بالحاجة إلى نظارات طبية ولكن الحقيقة أن عيونك مجهدة وبحاجة فقط إلى قطرات عيون وممارسة تدريبات خاصة للعين وبعض الراحة.

لنقل إن المختص الذي ذهبت إليه لفحص عيونك قد انتبه أنك لست بحاجة ماسة إلى النظارات وإنما إلى بعض التدريبات والراحة.

الآن هناك أربعة احتمالات لتصرف هذا المختص:

١. أن يقوم بتصميم نظارة طبية مناسبة لك. وبالطبع فإن المختص لم يكن كاذبا معك ولكنه كذلك لم يتحر الصدق. فالنظارة كانت مناسبة ولكنها لم تكن ضرورية. وتصرف المختص جاء بدافع تجارى وهو زيادة الأرباح له.

٢. أن يقوم المختص بإعلامك بالحقيقة ويكون الأمر لك باقتناء نظارة طبية أو الاكتفاء بتدريبات العين وبعض الراحة. ويكون الدافع لهذا المختص هو نظرة أخلاقية تجاه الصدق والأمانة.

٣. أن يقوم المختص بإعلامك بالحقيقة. ويكون الدافع هنا هو نظرة روحانية وخوفا من الخالق وطمعا في رضاه.

٤. أن يقوم المختص بإعلامك بالحقيقة. ويكون الدافع هو نظرة الاحتراف.

وهذه هي النقطة هنا: وهي أن الشخص عندما يصل إلى درجة الاحتراف فإنه يبدأ (وبشكل غريزي) بإتقان العمل من منطلق الاحتراف نفسه. وهذا معناه أن الشخص سيقوم بمتطلبات الاحتراف وبغض النظر عن أخلاقياته وروحانياته.

وهذا قد يفسر الإخلاص والأمانة عند الكثير من أساتذة الجامعات في الحزام الأوروبي الشمالي مع الطلاب المختلفين عنهم في الديانة والثقافة.

بالطبع فإن أفضل الأمور هو عندما يقوم الشخص بتحري الصدق والأمانة بدافع الأخلاق والروحانية والاحتراف، وعندها يكون هناك دوافع متضاعفة للإتقان.

وكما تم الحديث سابقا فإن نظرة الاحتراف قد جاءت من ثنايا الثقافة في مجتمعات الحزام الأوروبي الشمالي. وبالطبع فإن الدافع للاحتراف ليس له علاقة بالمكان أو الزمان أو العرق وإنما له علاقة مباشرة بالفلسفات العامة في المجتمع. وإذا نظرت إلى التاريخ فستجد أن نظرة الاحتراف موجودة في الكثير من الحضارات السابقة. فقد كانت نظرة الاحتراف واضحة في روما من ٥٠٠ ق.م إلى ١٠٠ ق.م. وكانت نظرة الاحتراف واضحة في الصين منذ قديم الزمان و إلى القرون الوسطى. كما أن نظرة الاحتراف كانت في غاية الوضوح في الحضارة المصرية الوثنية من عام ٣٠٠٠ ق.م إلى ١٠٠٠ ق.م. وهذا هو (ضمن وجهة نظر المؤلف) السبب في افتخار فرعون فيما ذكره القرآن: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف]. وعندما تنظر إلى مصر في الحضارة الوثنية القديمة فعليك أن تنظر إليها كما تنظر الآن إلى ألمانيا، فنظرة الاحتراف في مصر ذلك الوقت كانت في غاية الارتفاع مما جعل مصر ذلك الوقت دولة فريدة من نوعها. وهذا هو أساس الفخر عند فرعون أنه الملك في مصر.

وضمن ملاحظات ومقارنات المؤلف لنظرات الاحتراف عند مختلف الحضارات حديثا وقديما فإنه يغلب على تخمين المؤلف وجود علاقة بين الرسمية في المجتمع ونظرة الاحتراف.

بمعنى آخر فإنه من الضروري وجود الحد الأدنى من الرسمية كي تنمو نظرة الاحتراف. ومن الممكن توضيح هذا التخمين بملاحظة نظرة الاحتراف في السودان. فأهل السودان في غاية الذكاء كما أن عندهم مهارة واضحة في الشعر وكتابة القصص. ولكن نظرة الاحتراف في الأعمال الأخرى متدنية (حسب ملاحظات المؤلف). أما

السبب فهو شدة الالتزامات الاجتماعية في السودان. فالالتزامات الاجتماعية اليومية في السودان ضخمة من أفراح وأتراح ومناسبات وأعياد وزيارات....إلخ.ولهذا السبب فلا يوجد الوقت أو الطاقة عند الشعب السوداني لاستثماره في الاحتراف. وللتذكير فإن الاحتراف يتطلب البذل المستمر للوقت والطاقة في سبيل الإتقان.

والمشكلة في السودان هو أن الالتزامات الاجتماعية هي جزء من ثقافة المجتمع، وكل من ينحرف عنها فسيواجه (وبشكل غريزي وربما غير مقصود) بالانتقادات والسخرية. وبالطبع فإن الالتزامات الاجتماعية الخارجة عن الحد الطبيعي (ثقافة المناسبات) هي صفة موجودة في الشرق الأوسط بشكل عام ولكنها أكثر وضوحا في السودان وهذا هو السبب في ذكرها هنا.

❖ **مهارات التأثير** (Charming)

إن تشابكات الصفات السابقة قد أوجد عند الإنجليز مهارات التأثير الشخصي (Charming) . والـCharm هي سحر وجاذبية الشخصية وهي أحد المهارات الأساسية في الدبلوماسية والاستخبارات. وهدف هذه المهارات هو استمالة القيادات الأجنبية ورجال المجتمعات.

ومكونات وأسباب مهارات التأثير غير واضحة تماما عند المؤلف ولكن يستطيع المؤلف وضع بعض الملاحظات حولها:

* هناك انضباط حقيقي عند قيادات الإنجليز في بروتوكولات اللباس والتصرف والجلوس والمجاملة والحديث. وضمن تخمين المؤلف فإن هناك تأثيراً لبعض هذه البروتوكولات في مهارة التأثير. وأفضل مثال على ذلك هو الانضباط في الجلوس. وإذا لاحظت حافظ الأسد والملك حسين وأحمدي نجاد فستجد عندهم انضباطاً واضحاً في الجلوس وعندهم القدرة على الجلوس مدة طويلة دون أن يظهر عليهم الملل أو التوتر. وهذا بخلاف الكثير من قادة الدول الأخرى الذين لا يستطيعون الجلوس في مقاعدهم دون حركة.

وضمن تخمين المؤلف فإن الانضباط في بروتوكولات الملابس والانضباط في الجلوس وهدوء حركات الجسم والانضباط في بروتوكولات المحادثة والمجاملة له تأثير كبير على الحضور.

* دماثة وتهذيب السلوك أمر أساسي في مهارات التأثير. والدماثة لا تعني أن الرجل ذو أخلاق عالية وإنما الدماثة تتعلق بالألفاظ التي تتلفظها والتصرفات الآنية التي تقوم بها. والرجل ربما يكون مجرما ولكنه قد يكون ذا دماثة وتهذيب.

* أسلوب المجاملة عند قيادات الإنجليز لا تصل إلى درجة التملق ولا تصل إلى درجة التكبر والجفاف. وإنما هي بين بين.

* الملاحظة أن قيادات الإنجليز لا يتصرفون بتكبر وعنجهية وإنما يتصرفون برفعة. وهناك فرق بين الرفعة والتكبر. فالرفعة تتعلق بنظرة الشخص لنفسه دون مقارنة أو ازدراء للآخرين. أما التكبر فهو تصرف الازدراء من الرجل للآخرين.

كما سبق ذكره فإن المؤلف ليس لديه الإدراك الكامل لحدود وماهية هذه المهارة عند الإنجليز ولكنك تستطيع ملاحظة هذه المهارة عند الكثير من رجالات الإنجليز عبر التاريخ.

وهذا هو السبب في محاولات الإنجليز الدائمة في الإبقاء على نافذة للدبلوماسية بينهم وبين خصومهم. فهي عن طريق هذه النافذة تستطيع النفاذ إلى الداخل وتستغل مهاراتها في التأثير والإقناع للتشقيق وبذر الخلاف بين خصومها. وهنا تكمن القوة الحقيقية لإنجلترا وهي الدبلوماسية.

وهناك نقطة فرعية أخرى هنا:

نتيجة لقوة الدبلوماسية عند الإنجليز فإن مهارتهم كبيرة في جمع الأخبار والوثائق. وهذه الأخبار والوثائق تكون نافذة أخرى للسيطرة والنفوذ. مثال ذلك هو قصة عبد الكريم قاسم:

لم تكن علاقة الإنجليز جيدة مع عبد الكريم قاسم أول حكمه ولكنها تحسنت في أواخر حكمه. وكان السفير الإنجليزي في زيارات متكررة لعبد الكريم قاسم وفي كل مرة يكون في يده وثيقة سرية أو أخبار سياسية. وعلى إثر ذلك تعضدت العلاقة الشخصية بين عبد الكريم قاسم والسفير الإنجليزي. وعلى غلبة ظن المؤلف فإن الانقلاب الذي تم على عبد الكريم قاسم كان من تدبير الإنجليز. وفي النهاية فإن مصلحة العمل فوق العلاقات الشخصية ضمن وجهة النظر الإنجليزية.

❖ سطحية العلاقات الدافئة

أحد أكثر الصفات تناقضا بين مجتمعات البحر الأبيض المتوسط والإنجليز هو موضوع دفء العلاقة. فبالنسبة إلى مجتمعات البحر المتوسط فإن دفء العلاقة هو أحد مقدمات الصداقة. وأما عند الإنجليز فإن دفء العلاقة هو أحد متطلبات العمل الجيد (Good Business).

وبالنسبة إلى الإنجليز (بشكل عام) فإن الترحاب والمجاملات ودفء العلاقات ليس من أجل الصداقة وإنما هي أحد متطلبات العمل. ولهذا السبب فليس غريبا أن تذهب إلى إنجلترا في موضوع عمل وتجد الموظف هناك في غاية الترحاب والمجاملة ودفء العلاقة ولكن بعد أسبوع ربما تراه في الشارع وتجده مؤدبا معك ولكنه رسمي وجاف. ولا تستغرب إن ذهبت إلى البنك ووجدت الموظفين في غاية الترحاب والمجاملة ودفء العلاقة ولكنك ربما تراهم بعد ساعات العمل وتجدهم مؤدبين ولكنهم جافين ورسميين وكأنهم لا يعرفوك ولا تعرفهم.

وهنا النقطة: دفء العلاقة في إنجلترا هى أحد متطلبات العمل وليس مقدمات للصداقة. وهذا هو العكس تماما في مجتمعات البحر الأبيض المتوسط فإن دفء العلاقة هناك هو إحدى مقدمات الصداقة، وهذا معناه أن دفء العلاقة سيبقى حيا داخل المكتب أو خارجه وفي قضية عمل أو قضية تسلية.

وهذا هو أحد الأمور التي يتفاجأ بها المتوسطون (مجتمعات البحر المتوسط) من الإنجليز ويتهمونهم بأنهم مَصْلَحْجيّة (أي يجرون وراء المصلحة دون اعتبار للصداقة) في حين يتهم الإنجليز المتوسطين بالسذاجة.

ولكن إذا نظرت بعمق فإن لكل مجتمع نظراته الخاصة وقد تعود الإنجليز على هذه النظرة (أي أن دفء العلاقة هو أحد متطلبات العمل) وهم يعيشون فيها بانسجام.

ولكن هذا يتطلب غاية الحذر من مجتمعات البحر المتوسط في علاقاتهم مع الإنجليز. فدفء العلاقات والترحاب والمجاملات من رجال الأعمال الإنجليز ورجالات الدبلوماسية ليس بالضرورة صادقا ولا يعبر عن المشاعر الحقيقية وإنما هو أحد متطلبات العمل الجيد. وهذا كان واضحا تماما في مراسلات الإنجليز مع الشريف حسين بن على (شريف مكة في أوائل القرن العشرين). فقد كانت رسائلهم الأولى في غاية الدفء والترحاب والمجاملة وأما رسائلهم الأخيرة فقد كانت مؤدبة ولكنها في غاية الجفاف. وهذا بالنسبة إلى الإنجليز ليس نقيصة. فبالنسبة لهم فإن الترحاب والمجاملة كانت من ضرورات العمل مع شريف مكة أما بعد انقضاء هذا العمل فلا داعٍ لهذه المجاملات.

وقد استثمر الإنجليز مهاراتهم في المداراة والمجاملة وبشكل واضح. وعندما تكون هناك علاقة تجارية بين المتوسطي والإنجليزي فإن المتوسطي في كثير من الأحيان يقوم بالتنازل عن مطالبه وبطيب خاطر لأنه (في نظره) يتعامل مع صديق. في حين أن الإنجليز لا ينظرون إلى علاقتهم مع المتوسطيين نظرة صداقة وإنما هي نظرة عمل (Business).

وهذه المهارات (مهارات المداراة والترحاب والمجاملة) هي أحد أسباب نفوذ الإنجليز في سياسات الشرق الأوسط.

❖ المصافحة

المصافحة ليست عادة عند الإنجليز إلا في مناسبات خاصة. وهذا بالنقيض من مجتمعات البحر الأبيض المتوسط. وبالإضافة إلى ذلك فإن المجتمع الإنجليزي لا ينظر بانتقاد إلى عدم إفشاء السلام وهذا كذلك على النقيض من مجتمعات البحر المتوسط. فالسلام والتحية عند أهل المتوسط هي عادة عند اللقاء وعند الفراق أما عند الإنجليز فتجد الكثير يأتي إلى مكتبه أو يخرج منه دون أن يلقي التحية، والمجتمع الإنجليزي لا ينظر إلى هذا الأمر باستغراب. وهذا قد يعطي دلالة على عمق العلاقات الاجتماعية عند مجتمعات البحر المتوسط عنه في إنجلترا.

❖ تناقض العلاقات الشخصية

كثير من الصفات السابق ذكرها كالمداراة ومراعاة الحضور والصدق هي صفات يقوم المجتمع بفرضها في مجالات العمل ومجالات العلاقات الاجتماعية العامة. ولكن ما لاحظه المؤلف هو أن هذه الصفات تكون أحيانا متناقضة مع أخلاق الشخص في المحيط الشخصي (أي مع الأصدقاء المقربين والأهل والأبناء .. إلخ).

وقد يبدو هذا متناقضا ولكن هذا ما لاحظه المؤلف. فالأخلاق في المجال الرسمي قد تكون متناقضة تماما مع الأخلاق في المجال الشخصي. وهذا لا يعني أن أخلاق جميع الإنجليز الشخصية تتناقض مع أخلاقهم الرسمية وإنما يعني أن الأخلاق الرسمية هي أخلاق فرضها المجتمع وأما الأخلاق الشخصية فهي تعتمد تماما على تربية الشخص وظروفه.

وهناك صفة واضحة عند الإنجليز وهو أن الإنجليز مزاجيون في المجال الشخصي. فالمزاج يتقلب عندهم وبصورة عجيبة وهذا قد يكون أحد أسباب ارتفاع نسبة الطلاق والانفصال عندهم.

وهذه نقطة جديرة بالانتباه:

مزاجات الإنسان تتغير من يوم إلى آخر ومن ساعة إلى أخرى. ولهذا السبب فالإنسان بحاجة إلى الحد الأدنى من الانضباط كي لا تتغير تصرفاته بتقلب مزاجه. وبالتالي فإن الانضباط يقوم بالحد من تأثير تغيرات المزاج على السلوك والتصرف. ولكنك لا تستطيع أن تشتري الانضباط من السوبرماركت أو محلات البقالة وإنما الانضباط تربية وممارسة.

ومنذ الستينيات والسبعينيات والحزم في التربية عند الأهل وفي المدارس قد أخذ بالتراجع في إنجلترا. وهذا أدى إلى ظهور أجيال يتصرفون حسب مزاجاتهم. وهذا الذي يبدو ظاهرا الآن في إنجلترا.

وليست جميع صفات الإنجليز السابقة سيئة وليست جميعها حسنة. فهدوء الأعصاب والمداراة والدردشة هي صفات حسنة. وأما سطحية العلاقات الدافئة وعدم إفشاء السلام وتناقض الأخلاق الشخصية والمزاجية فهي من الصفات السيئة وهي أحد الأسباب المؤدية إلى الشقاق. والذي حاول المؤلف القيام به في هذه المقالة هو نظرة شمولية (قدر الإمكان) لصفات المجتمع الإنجليزي تشمل الحسن والسيئ.

وهذه نقطة جوهرية:

توجد مرحلتان في التحليل: الأولى التحليل العقلي المجرد والثانية تحديد المواقف.

والمرحلة الأولى هى تحليل عقلي مجرد لا يتعلق بالعواطف أو المبادئ أو المشاعر وإنما هى نظرة بحتة للأمور. وإذا أحضرنا رجالاً مختلفي المبادئ (مسلم ونصراني وبوذي وهندوسي). وكانوا ذوي مهارات واطلاعات متشابهة وكانوا جميعهم ذوي مستوى ذكاء متساوٍ فإن المتوقع أن تكون نظرتهم العقلية للأحداث متشابهة. فالتحليل العقلي لتكتيكات هانيبال ومخططات تشرتشل وحركات رومل يجب أن تكون متشابهة عند المحللين ذوي المهارات والقدرات والاطلاعات المتشابهة. ولكن المواقف عند هؤلاء المحللين تختلف باختلاف مبادئهم ومشاعرهم.

وعندما تقوم بتحليل عقلي مجرد فيجب عليك أن تنتبه للحسن والسيئ وتنتبه إلى نقاط القوة ونقاط الضعف دون أي نظرة من نظرات الاحتقار أو الانبهار.

وهذه مشكلة حقيقية عندنا نحن المسلمين في الوقت الحاضر. فنظرة الكثير من المسلمين للغرب هي نظرة احتقار أو انبهار. ولكلتا النظرتين ضرر:

فكثير من المسلمين يظن أن المسلم هو الأذكى من الكافر وهذا الأمر غير مناسب. فلا يوجد أي علاقة بين الذكاء والإسلام . والهداية ليست مرتبطة بالقوة العقلية، فهناك الكثير من متوسطي الذكاء وقد هداهم الله إلى الإسلام وهناك الكثير من شديدي الذكاء ولم يدخلوا إلى الإسلام . فربط الإسلام بالذكاء هو ربط غير صحيح.

ولكن الذي يحدث عند كثير من المسلمين هو الاستغراب الشديد عندما يرون رجلا أوروبيا ذكيا ويقولون لماذا لا يسلم هذا الرجل. وهناك الكثير من المسلمين من يضرب الكف على الكف ويقول عن الغرب والإنجليز: كيف حكمونا هؤلاء؟

وهناك نظرة احتقار أخرى وهي قيام المسلمين بالمقارنة بينهم وبين الغرب في موضوع العبادات والوضوء والطهارة والمعاشرة والصحبة، ثم يقومون باحتقار الغرب كنتيجة لهذه المقارنة. وهذا خطأ شديد. فالعبادات والوضوء والطهارة لم نتبناها نحن بسبب ذكائنا الخارق أو بسبب نظرتنا الثاقبة للأمور وإنما ترسخت فينا هذه الأمور لأنها أوامر الله. ولهذا السبب فإن نتيجة المقارنة يجب أن تكون الشكر والحمد لله على فضله ونعمه علينا، لا أن تكون احتقارا على أقوام لم ينعم الله عليهم كما أنعم علينا.

وهذه نظرات الاحتقار. ولكن في الوقت نفسه فإن الكثير من المسلمين ينظر إلى الغرب نظرات الانبهار بسبب المنجزات العمرانية والثقافية عندهم. وضمن ما شاهده المؤلف فإن الكثير من المسلمين تتقلب نظرته بين الاحتقار والانبهار للغرب أكثر من مرة في اليوم الواحد.

وعندما تنظر إلى خصومك نظرة الاحتقار فأنت في الحقيقة لا تنظر إلا إلى نقاط القوة عندك. ولا يكون عندك الانتباه إلى نقاط القوة عند الخصوم.

وعندما تنظر إلى خصومك نظرة الانبهار فأنت في الحقيقة لا تنظر إلا إلى نقاط الضعف عندك. ولا يكون عندك الانتباه لنقاط الضعف عند الخصوم.

ولهذا السبب فإن نظرات الاحتقار أو الانبهار هي نظرات عقيمة ليس منها إلا كل الضرر.

ولكي تنتصر على العدو فعليك أن تنتبه إلى نقاط قوته وتحاول الإحاطة بها والتعلم منها، وعليك أن تنتبه إلى نقاط ضعفه وتحاول استغلالها، وعليك أن تنتبه إلى نقاط قوتك وتحاول استثمارها، وعليك أن تنتبه إلى نقاط ضعفك وتحاول معالجتها. ولكي تستطيع الانتباه إلى كل هذا فعليك أن تنظر إلى الأمور نظرة عقلية مجردة بعيدة تماما عن نظرات الاحتقار أو الانبهار.

وهذا ما حاول المؤلف عمله (قدر الإمكان) في تحليل صفات المجتمع الإنجليزي.

على أية حال فإن القرائن الحالية تفيد أن الانضباط في المجتمع الإنجليزي قد بدأ بالتراجع. وكما تم شرحه في مقالة سابقة فإن تراجع مفهوم الديانة في أوروبا قد أدى إلى تفكك الأسرة وسطحية العلاقات الاجتماعية وتراجع النظرة الوطنية. وكذلك فإن أحد الأساليب التي تم استخدامها لمواجهة الشيوعية هو تشجيع الحرية الشخصية وتشجيع التوجه نحو المتعة والإسراف. وهذا كله قد أدى إلى تراجع الانضباط في المجتمع الأوروبي.

ولكن هناك ملاحظة هامة وهي أن مستوى الانضباط في إنجلترا كان بنفس المستوى عند الألمان في بداية القرن العشرين. وكذلك كان مستوى الصناعات في إنجلترا. ومستوى الانضباط الآن في ألمانيا أقل من مستواه في بداية القرن العشرين ولكنه أعلى بكثير من مستوى الانضباط في إنجلترا. وهنا السؤال: لماذا؟؟؟

ضمن غلبة الظن فإنه لا توجد مشكلة في شرعية نظام الحكم في ألمانيا. فلا توجد مشكلة شرعية بين الحاكم والمحكوم وإنما توجد صراعات فكرية وحزبية يتم فضها بشكل دستوري وقانوني. ولهذا السبب فإن قيام النظام في ألمانيا بالحزم والحسم والصرامة في موضوع الانضباط لا يشكل مشكلة جوهرية بين المحكوم (الشعب) والحاكم.

أما في إنجلترا فإن الوضع مختلف قليلا. وقيام النظام بالحزم والحسم والصرامة في موضوع الانضباط قد يؤدي إلى أن يتساءل الشعب عن شرعية النظام نفسه. فنظام الحكم في ألمانيا ديمقراطي كامل في حين أن النظام في إنجلترا ملكي أرستقراطي ضمن واجهة ديموقراطية. وضمن غلبة ظن المؤلف فإن هذا هو السبب في إحجام النظام الحاكم في إنجلترا أن يكون بنفس المستوى الألماني من الحزم والحسم والصرامة لحماية الانضباط.

وتراجع الانضباط واضح في إنجلترا. فقبل الحرب العالمية الثانية كانت الصناعات في إنجلترا تفوق الصناعات في ألمانيا كفاءة ومجالات. أما الآن فإن قطاع الصناعات الثقيلة قد بدأ بالاضمحلال. وانتبه الإنجليز لهذا الأمر وبدأت سياساتهم تتجه نحو التركيز على قطاع الخدمات كالخدمات المصرفية والبنوك والتأمين والسياحة والمحاسبة والاستشارات والتعليم والأبحاث..إلخ. ولكن المشكلة هنا أنه كي تستمر إنجلترا في النجاح في قطاع الخدمات فعليها أن تكون علاقاتها مع العالم طيبة وعليها أن تكون دائما في مركز العالم. وأي تغيير في مركز إنجلترا في العالم سيؤثر سلبا وبشكل كبير على اقتصاد إنجلترا.

نقطة أخيرة في هذه المقالة وهي أنه ربما كان المؤلف شديدا أكثر من اللازم تجاه الشرق الأوسط. وللحق فإن ثقافة "العين الحمراء" قد بدأت بالاختفاء. وما زالت ثقافة "لسه بيتحمل" موجودة عند الجيل القديم ولكنها بدأت بالتراجع عند الأجيال الجديدة والأمل أن تختفي قريبا. كما أن طول البال وسعة الصدر قد بدأت بالتصاعد كما أن الانضباط ونظرة الاحتراف في الشرق الأوسط (وخصوصا في تركيا وإيران) قد بدأت بالتضاعف. وهذا الأمر يثير في النفس الأمل.